استهداف فكر ميشال شيحا لأنه مهندس التجربة اللبنانية والرائد في الفكر المسيحي - اللبناني - العربي

لبنان شيحا باق ومستمر وذو دعوة تاريخية يجسّدها حوار الثقافات والأديان ... ولبنان الآخرين مرشح للالغاء تحت شعار الدفاع عنه على يد جماعة التسلّط !

ليست هي المرّة الأولى التي يقوم فيها بعض ساستنا الموسمّيين والعقائديّين الطوباويّين بمهاجمة "لبنان ميشال شيحا". وفي زعمهم أنّ هذا اللبنان كما صوّره وبلوره ورآه ميشال شيحا هو "لبنان الانتداب، لبنان الانعزال، لبنان اليمين، لبنان المنفصل عن البعد العربي وعن القضيّة الفلسطينيّة"... هذا المقال لا يهدف إطلاقاً إلى الدخول في جدال عقيم مع هؤلاء الساسة والعقائديّين، بل يهدف، بالاستناد إلى الفكر السياسي وليس النّزعات السياسيّة، إلى التذكير بالوجه الحقيقي "للبنان ميشال شيحا"، وبالمقابل إلى التعريف "بلبنان الآخرين، كلّ الآخرين، الذين جعلوا همّهم تشويه وجه لبنان الناصع والنيل من فكر ميشال شيحا وتحديداً من "نظرته إلى لبنان في ذاته" وعبره إلى فلسفة المصير اللبناني!

د. نبيل خليفه (*)

ثلاثة أسئلة تطرح نفسها في المجال هذا:
أولاً: لماذا ميشال شيحا؟
ثانياً: صورة لبنان ميشال شيحا.
ثالثاً: صورة لبنان الآخرين!

أولاً: لماذا ميشال شيحا؟

إن استهداف فكر ميشال شيحا ورؤيته للبنان يعود إلى جملة أسباب:

1 - لأنّه المفكّر الأبرز دفاعاً عن القضيّة اللبنانيّة، قضيّة الإنسان والأرض، قضيّة الحرية.

2 - لأنّه راهن باكراً على فلسفة الليبراليّة كأفق لرسم ملامح المجتمعات الإنسانيّة المتحضّرة والمعاصرة وكسب الرهان في معترك الصراعات العقائديّة في وجه الدوغمائيّين!

3 - لأنّه الأكثر تأثيراً على جيل كامل من القادة الاستقلاليّين والمناضلين الشباب اللبنانيّين وعلى رأسهم الشيخ بشارة الخوري.

4 - لأنّه، ومنذ الأربعينات، تحدّى الإيديولوجيّات الرائجة آنذاك (الماركسيّة والاشتراكيّة والقوميّة) بسلاح الواقعيّة العلميّة أي بجدليّة الفكر والواقع وأثبت أنّ الإيديولوجيّة الحيّة تصدر عن الناس ولا تفرض عليهم!

5 - لأنه رجل الصيغة اللبنانيّة بامتياز في تركيبتها وشروطها وتوازناتها الدستوريّة والتشريعيّة والإداريّة والطوائفيّة! إنّه واضع فلسفة الحياة المشتركة للبنان الكبير.

6 - لأنّه الرائد في الفكر المسيحي - اللبناني - العربي، في كشف ومواجهة المشروع الصهيوني في فلسطين ولبنان والمنطقة والعالم! فكان رائداً في هذا المجال، ولا يزال..!

7 - باختصار، لأنّه مهندس التجربة اللبنانيّة بفضل وعيه التاريخي واقع لبنان ودوره ومصيره!

ثانياً: صورة لبنان ميشال شيحا

إذا حاولنا أن نختصر ببضعة عناوين صورة لبنان كما رسمها ميشال شيحا لبدت بالخطوط والألوان الآتية:

1 - عند ميشال شيحا كما لدى فرنان برودويل، "الجغرافيا هي التي تؤثّر في التاريخ". ولبنان ميشال شيحا هو ناتج "تداخل الجبل والبحر الذي منح لبنان الخطوط الأساسيّة لخصوصيّته. فهما القطبان اللذان دارت حولهما، منفردين ومجتمعين وتحدّدت عبرهما تركيبة لبنان المعقدة وحتى المتعدّدة وفيها: الحركيّة والهضم السريع للغات الأجنبيّة، والتجارة، والسفر. هذه هي حصة البحر. أما مساهمة الجبل ففي كونه الملجأ، وخط الدفاع ضد الاضطهاد والتمسك بالخصوصيّات"(1).

2 - إنّ الجبل هو سلسلة لبنان الفقريّة وهو الملجأ. إنّه ثروة لبنان الأولى وحبّه هو حبّ للوطن. وأمّا البحر المتوسّط فقد غيّر غاية الله في التاريخ، وبديل أن يكون حدوداً تفصل بين الشعوب والدول أصبح وسيلة اتصال بينها. وهكذا فدعوة لبنان هي دعوة متوسّطيّة: بلد منفتح على الإنسان والعالم يأوي المضطهدين ويشكّل صلة وصل بين الشعوب". لهذا فإنّ لبنان "خلق ليكون بلد الحركة الحرة" وبالتالي "لا يمكن وضعه في قفص"!

3 - للبنان، في نظر ميشال شيحا، موقع استراتيجي مهم. فهو خطّ مرور يؤذي لبنان سياسياً واجتماعياً بفعل قوى الاحتياز والهيمنة أي بفعل التوسّع العسكري، ولكنّه موقع يفيد لبنان على الصعيدين الثقافي والاقتصادي بفضل تبادل الأفكار والسلع! ولقد تضاعفت المخاطر على لبنان بسبب قيام إسرائيل على حدوده الجنوبيّة. "فسواء تقدّمت اسرائيل في تحقيق مطامعها أم تراجعت فإنّنا سنواجه مخاطر متنوعة.. ومهما عملنا فإنّنا لن نعرف الهدوء. إنّ وجود إسرائيل على خطوتين منّا سيكون له انعكاسات دوليّة على مستقبلنا... هذا ما يجب قوله بشجاعة للشعب اللبناني لأنّه الحقيقة". "فنحن نعيش على حدود الخطر الدائم".

4 - إنّ القواعد التي تحكم حياة لبنان العامّة، لدى شيحا، هي ثلاث:

□ "ليس لبنان بلد الرأس الواحد (الزعيم) ولا بلد الانقلابات. بل هو بلد من واجب التقاليد أن تصونه من العنف".

□ على اللبنانيّين أن يفضّلوا دائماً التطوّر العميق، وإن بطيئاً، على الثورة والانقلاب!

□ المطلوب للبنان مؤسّسات ثابتة قادرة على مواجهة حركة اللاتوازن الوطني التي تدعّمها وترعاها القوى الخارجيّة، مؤسّسات تستلهم: واقع لبنان وموقعه ودوره!

5 - يعترف شيحا بوجود تباينات، وحتى تناقضات داخل التركيبة السوسيولوجيّة اللبنانيّة. ولهذا فهو يدعو اللبنانيّين "لإنقاذ الحرية والاحتفاظ بملجأ ضدّ الفئويّة السلطويّة الظالمة" أي أنّهم مدعوّون لإنشاء دولة واحدة سيّدة حرّة، وفي هذا تكمن فكرة الوطنيّة اللبنانيّة والقيم التي ترتكز عليها، وفيها: التنوّع الثقافي، وتعدّد اللغات، والاندماج، والمألفة المجتمعيّة القائمة على التنسيق وليس على الانصهار، والتوازن بين عناصر المجتمع المختلفة لأنّ لبنان في تعريف شيحا هو "بلدّ لأقليّات طائفيّة متشاركة"! ولطالما ردّد هذه العبارة في كتاباته!

6 - ولبنان ميشال شيحا هو "بلاد التوازن والاتزان.. وعليه من المهم أن تبقى السلطة في لبنان دائماً بين أكثر الأيدي خبرة وأوفرها قوّة. ولكن أصلح رجل بل أصلح جماعة لحكم لبنان سيظلون إلى ما شاء الله أولئك الذين يقوون على حفظ السلام فيه". "والسلام ليس فقط عدم الحرب، بل سياسة منصفة لا تأخذ بالعنف أقلية من الأقليات، لأننا نعيش في وطن روحي يحفظنا باسم روح الإيمان والتسامح والحرية من أقدم الأزمنة". فهذا البلد كان منذ الأزل و"يبقى إلى الأبد" بلداً للتسامح الروحي ولاحترام الحريات المشروعة". فقوّة لبنان تتمثّل بروح شعبه. والمقاومة الروحيّة تتغلب على كل وسائل العنف. وعليه، فإن لبنان بلد لا يناسبه في السياسات ركوب الرأس ولا مركب الانقلابات، بل هو بلد يتعيّن على التقاليد فيه أن تعصمه من متوسلي القوّة"!

7 - ولبنان ميشال شيحا "هو بلد الخمسة آلاف سنة الذي يمتلك أبعاد التاريخ"، وتاريخه ليس تاريخ طائفة بعينها بل هو تاريخ كل الطوائف المتشاركة. ولبنان بسبب موقعه الاستراتيجي "هو محطّ أطماع الخارج وهو مصدر خطر على أبنائه لأنّهم حرس دائم لهذا الممرّ التاريخي للشعوب". وإذا كانت الطائفيّة تفرّق بين هذه الطوائف، وهذا صحيح في الأحوال الشخصية، فإنّ شيحا لم يستخدم أسلوب الاستيعاب في محاربة الطائفيّة. فالطوائفيّة عنده واقع اجتماعي يمتد على أكثر من ألف وخمسماية سنة. هذه الظاهرة الاجتماعيّة الكلية (الطائفيّة) لا يمكن إلغاؤها إلا بإلغاء الطوائف ذاتها، وإنّما يمكن بحسب شيحا تخطّيها: بتأكيد ما يفرّق بين الطوائف (الأحوال الشخصيّة المرتبطة باعتبارات دينيّة) وبالمقابل تأكيد ما يوحّد بينها، بل وجوب ذلك وفيه أمران: وحدة الأرض ووحدة المصير. وبهذا أرسى ميشال شيحا أول نظريّة في الشرق الأوسط تضع أسس المجتمع على قاعدة لاهوت الأرض ولاهوت المصير!

اختصاراً، إنّ لبنان ميشال شيحا هو لبنان النقيض لبعض السياسيّين والدوغمائيّين: إنّه لبنان الاستقلال، ولبنان الانفتاح ولبنان الاعتدال والتوازن ولبنان "الملتزم فكرياً وحضارياً وثقافياً بالبعد العربي ولبنان المتحسّس الأول.. وربّما الأخير بمخاطر التجربة الصهيونيّة عليه وعلى العالم العربي والعالم. بهذا المعنى، فإنّ مهاجمة ميشال شيحا تعود إلى كونه أباً للفكرة اللبنانيّة إذ هو واضع أسسها في أطرها الجغرافيّة والتاريخيّة والاقتصاديّة والسياسيّة والجيو-سياسيّة والثقافيّة والأخلاقيّة. إنّه رجل الإيديولوجيّة اللبنانيّة بامتياز، ولذا يصحّ فيه القول إنّه "باني لبنان المعاصر": لبنان البلد الصغير.. والشعب الكبير!

ثالثاً: صورة لبنان "الآخرين"!

1 - إنّ لبنان الآخرين هو النقيض للبنان ميشال شيحا. هو في زعمهم بلد ناتج "اتفاقيّات سايكس - بيكو" و"صنيعة الاستعمار" ورديف لإسرائيل، و"نموذج للإنعزال داخل الوطن العربي"، وخاصرة رخوة لسوريا. ودولة يتبنّى بعض دعاتها شعار "قوة لبنان في ضعفه" وليس في قوّته المستمدّة من /والمستندة إلى قوة "مقاومته". وفيه نظام محاصصة طائفيّة بما يجعله ساحة لصراعات القوى الداخليّة والإقليميّة والدوليّة. أبعد من ذلك، فإن لبنان "المصطنع" هذا هو تجربة يصعب بل يستحيل أن تعيش وهو ما تؤكّده الحوادث فيه وحوله منذ أكثر من ثلثي قرن. اختصاراً، إنّ لبنان الكيان والدولة والنظام هو في نظر هؤلاء "خطأ جغرافي وتاريخي" في آن، ولا بدّ من العودة عن هذا الخطأ!

2 - إنّ تعبير "لبنان خطأ جغرافي وتاريخي" الذي يستخدمه قوميّون وأصوليّون يدّعون الانتساب إلى العروبيّة والاسلاموية هو تعبير أطلقه وزير الدفاع الإسرائيلي الأسبق موشه أرينز. وهذا ما يؤكد وجود تلاق موضوعيّ بين هؤلاء على ثلاثة أمور، هي فعلياً أساس الصراع الدائر اليوم، كما بالأمس، في لبنان وحوله وهي: إلغاء الكيان، وتدمير الدولة، وتغيير النظام.

□ إنّ لبنان الجغرافيا لم يقم على "اقتطاع الأقضية الأربعة من سوريا" لسبب بسيط وجوهري وهو أنّه لم تكن توجد آنذاك دولة سوريّة بالمعنى الشرعيّ للكلمة، وبالتالي فنحن إزاء كذبة بل مرطقة تاريخيّة!

□ ولبنان التاريخ عرف بمكوّناته البشريّة (بطوائفه) تجربة تاريخيّة هي جزء مركزي من مكوّنات الخصوصيّة اللبنانيّة التي شهد لها المؤرّخون.

□ إنّ الاندفاع المزدوج: الصهيونيّ والأصوليّ الاسلاميّ لتسخيف وإسقاط التجربة اللبنانيّة واستخدام كلّ الوسائل المتاحة على امتداد ثلثي قرن، هذا الاندفاع يؤكّد مدى أهميّة هذه التجربة الإنسانيّة الرائدة وصلابتها وصحّتها، ومدى خطورتها على الإيديولوجيّات المنغلقة: الصهيونيّة والأصوليّة (بوجهيها الشيعي والسنّي).

□ إنّ إسقاط مقولات: الاعتدال والاتزان والتوازن والديمقراطيّة والتشارك والحوار التي أرساها ميشال شيحا لمصلحة مقولات: الأصوليّة والعنف والتعصّب والديكتاتوريّة والتسلّط، يفتح الباب واسعاً أمام إسقاط البعد القوميّ للصراع العربي - الإسرائيليّ بتغيير الهويّة العليا من هويّة قوميّة إلى هويّة دينيّة. وبتسهيل اندلاع شرارة الفتنة بين الأصوليّات السنيّة والشيعيّة، وهو أحد أهمّ الأهداف التي تعمل لها إسرائيل منذ نشوئها. فهذه الأصوليّات التي تضع في رأس شعاراتها محاربة إسرائيل، والممانعة، والتصدّي، تقوم عملياً بخدمة السياسة الإسرائيليّة، وهو ما حذّر منه ميشال شيحا مشدّداً على أنّ لبنان بلد لا يُحكَم بالعنف ولا يُحكم إلاّ بالحوار والاعتدال، ولا يحيا إلاّ بالحريّة!

7 - إنّ لبنان الآخرين هو لبنان الضعيف اقتصادياً. فلكي يبرّر هؤلاء عدم قابليّة لبنان للحياة يعتمدون أسلوب الحرب الاقتصاديّة عليه: إفقار لبنان ومنع النموّ وضرب المواسم السياحيّة بالحروب الفعليّة أو بحروب التهديدات لـ"تهشيل" الرساميل، وزيادة الدّين العام وبامتصاص جزء مهمّ من ثروات البلاد ومن مداخيلها وباضطراب الأمن لـ"تطفيش" الشباب اللبناني إلى الخارج ومضاعفة الهجرة، وفرض الثنائيّة الأمنيّة وتحدّي سلطة الدولة والقضاء، وشلّ المرافق والمؤسّسات العامّة. وفرض معايير فئويّة وإيديولوجيّة على حرية الفن والتعبير واحتكار "المقدّس" ورشق الآخرين بحرم "المدنّس"!.

* * *

لبنان الآخرين هو بلد مرشّح للإلغاء بالتخلّص منه تحت شعار الدفاع عنه على يد جماعة التسلّط! أما لبنان ميشال شيحا فهو بلد باق ومستمرّ لأنّه ذو دعوة تاريخيّة يجسّدها حوارّ الثقافات والحضارات والديانات، وهو بلد مهما حاولوا تشويه صورته، وإثارة الإضطرابات فيه، تنطبق عليه معظم معايير الدولة الحديثة كما تراها الأمم المتّحدة، وفيها: دولة القانون، والشفافيّة في العمل السياسي ومكافحة الفساد واستقلاليّة القضاء وحياد قوى الأمن، والمراقبة المدنيّة للسلطة العسكريّة، ووجود صحافة حرّة. وإجراء انتخابات دوريّة موضوعيّة وحرّة واحترام حقوق الإنسان. صحيح أن لبنان بلد صغير.. "ولكنّ تاريخه هو في الواقع جزء كبير من تاريخ عالمنا المعاصر" كما يقول فيليب حتّي، أو كما يقول ميشال شيحا. "لبنان بلد صغير، بالتأكيد بلد جدّ صغير، أمّة صغيرة.. ممكن ولكن ليس شعباً صغيراً أبداً".. إنّه الشعب الذي حقّق النهضة العربيّة الأولى، والمدعوّ إلى تحقيق النهضة العربيّة الثانية بمقدار ما يتسنّى له أن يخدم شعار "لبنان أولاً" وبمقدار ما يتسنّى له أن يعيش في بهاء الحريّة!

(*) باحث لبناني. مترجم كتاب "فلسطين" لميشال شيحا. مؤسّسة ميشال شيحا/ ودار النهار، بيروت، 2003.

(1) معظم الاستشهادات الواردة في النصّ والموضوعة بين مزدوجين هي لميشال شيحا.

ميشال شيحا.

بلد التنوّع وحوار الحضارات. (الأرشيف)